ميلاد الآمال من الجراح والآلام

الأحد 6 أكتوبر 2013 12:10 م

د إبراهيم التركاوي

شاءت إرادة الله (جل جلاله) – الذي يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويرزق من يشاء بغير حساب – أن يجعل من العسر يسرا ، ومن الكرب فرجا ، ومن الهم فرحا ، ومن الشدة رخاء ، ومن الضيق سعة ، ومن الآلام آمالا ..

فما وجد عُسر إلا وكان معه يسران ، كما قال الله (عز وجل) : "فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا" الآية ٥ ، سورة الشرح "

وقال النبي صلي الله عليه وسلم – في هذا الشأن - : " لن يغلب عسر يسرين ".

وعلي هذا ، ربّي الله (عز وجل) أنبياءه – وهم في أشد اللحظات ضيقا وحرجا – ألّا ينشغلوا بالجراح والآلام ، عمّا ينتظرهم في الغد المشرق من البشريات والآمال .

تأمل نبي الله (يوسف) – عليه السلام – عندما ذهب به أخوته وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، أوحي الله إليه – وهو في غيابة الجب – بالغد المشرق الذي سيتمكن فيه ، وسيخبرهم بما فعلوه .. " فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ" الآية ١٥، يوسف

وقد كان .. ، وأنبأ أخوته بما فعلوا به وبأخيه ، بعد أن مكّن الله له ، وجعله علي خزائن الأرض .. " قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ " الآية ٨٩ ، يوسف

وتأمل ما حدث لـ (أم موسي) إذ أحيط بها – وهي الأنثى – وهي خائفة تترقب ، تحتضن ولدها ، وفرعون يذبّح الأطفال من حولها .. فبينما هي كذلك إذ أوحي الله إليها بأن تلقي ولدها وفلذة كبدها في اليمّ ، ووعدها – سبحانه – برده إليها ومن ثمّ فعليها ألّا تخاف ولا تحزن .. " وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ" ٧ ، القصص

وقد كان ، ورده الله إليها ، - بعد أن سخّر له فرعون وهو لا يشعر – فكانت ترضع ولدها وتأخذ أجرها ..! " فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ " ١٣ ، القصص

وما حدث مع نبي الله (يوسف) ، ومع (أمّ موسي) حدث مع النبي الخاتم (محمد صلي الله عليه وسلم) ، إذ اضطر للخروج والهجرة بعد ما ضاقت مكة به وبدعوته ، وتآمر القوم علي الخلاص منه .. " وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" ٣٠ ، الأنفال

وبينما النبي – صلي الله عليه وسلم – في طريقه – وهو مطارد – إلي المدينة ، أوحى الله إليه بقوله تعالي : " إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ .." ٨٥ ، القصص

وقد كان .. وفتح الله (عز وجل) له مكة ، وأتم نعمته عليه ، ونصره نصرا عزيزا ..

بهذه الروح ، وتلك التربية القرآنية التي تربّي النبي (صلي الله عليه وسلم) عليها وتشبّع بها ، ربّي عليها أصحابه ، رباهم علي أن يرتفعوا فوق الأحداث ، وألّا ينشغلوا بها عما ينتظرهم في الغد من بشريات الخير ونسائم الرحمة .

عن سلمان الفارسي – رضي الله عنه – قال : (ضربت في ناحية من الخندق , فغلظت عليّ صخرة ، ورسول الله – صلي الله عليه وسلم – قريب مني ، فلما رآني أضرب ورأي شدة المكان عليّ ، نزل فأخذ المعول من يدي ، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة , قال : ثم ضرب به ضربة أخري , فلمعت تحته برقة أخري , قال : ثم ضرب به الثالثة ، فلمعت تحته برقة أخري ، قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ،

ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : أو قد رأيت ذلك يا سلمان ؟ قلت : نعم قال : أما الأولي فإن الله فتح عليّ بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب , وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق) الحديث حسن بطرقه

بشّر النبي – صلي الله عليه وسلم – بهذه الفتوحات في وقت عصيب ألمّ بالناس ، وصفه الله (عز وجل) بقوله تعالي : " إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا" ١٠ ، الأحزاب

هذا الجو الخانق جعل أرباب النفاق يتندرون - في ضيق وغيظ – بقولهم : إن محمدا يعدنا كنوز كسري وقيصر ، وأحدنا لا يأمن علي خلائه !.

بيد أن ما وعد به النبي – صلي الله عليه وسلم – قد تحقق وفتح الله لرسوله وصحابته بلاد كسري بفارس ، وبلاد قيصر بالشام ، وبلاد اليمن بالجزيرة .

إذا كانت آلام المخاض - مهما اشتدت وطالت - تسفر عن مولود جديد ، فإن الآمال تولد من الجراح والآلام ، ولاسيما لمن سعي إليها بالعمل لا بالأماني والأحلام!

---

* داعية ، وباحث في الفكر الإسلامي